ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Resea. Israa Mutashar hamuwd

Dr. Raad N. Mayood.

Wasit University. College Of Education For Humanities
Email:
Ihammond@uowasit.edu.iq
ralwaili@uowasit.edu.iq

Keywords:

Asceticism, wine, the heights, values

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 2.Mar.2024

Accepted 9.Apr.2024

Published 15.Nov.2024

The shift in values among Andalusian poets between wine and asceticism as an example

A B S T R A C T

Andalusian society, at its most general level, lived a life almost dominated by leniency in religious and societal values and customs until it became.

A clear feature in their lives. At the same time, we have encountered a religious trend that attempts to follow the traditions of the early Muslims in imbuing their lives with a religious and moral character, which stands in contradiction to what.

Others knew about it.

The research attempted to answer this turning point

The great story that changed the path of poets and they then changed from a carefree life to an ascetic one.

The attempt was to trace the poetic production that depicted two contradictory realities among poets Especially in wines

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol57.Iss1.3888

"الانعطافة القيمية عند الشعراء الأندلسيين بين الخمر والزّهد إنموذجًا"

الباحثة: إسراء مطشّر حمود الخويلدي أ.د. رعد ناصر مايود الوائلي

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية.

الملخص:

عاش أغلب المجتمع الأندلسيّ حياةً تكاد يطغى عليها طابع التّساهل في القيم والأعراف الدّينية والمجتمعية حتّى غدت سمة واضحة في حياتهم.

وفي الوقت نفسه ألفينا اتجاهاً دينياً يحاول السّير على خطى المسلمين الأوائل في إسباغ حياتهم طابعاً دينياً وقيمياً، على النقيض لما عرف به الآخرون.

وقد حاول البحث الإجابة عن تلك الإنعطافة الكبيرة الّتي غيّرت مسار الشّعراء فتحولوا من حياة لاهية إلى أخرى زاهدة، فكانت المحاولة تكمن في تتبع النتاج الشّعري الّذي رسم حقيقتين متناقضتين عند الشّعراء ولا سيما في الخمريات.

الكلمات المفتاحية: الزّهد ، الخمر، الاعراف ، القيم

الخمر

يسعى في هذا البحث إلى الكشف عن نقاط التّلاقي والافتراق في حياة الشّعراء عن طريق نظرتهم إلى مباهج الحياة، وطرق التّلذذ بها، ومن خلال ما بثّ من أشعارٍ وقصائد، وسم بها الشّعراء واضحت معلماً في حياتهم.
وتكمن طريقتنا في الاستدلال على تلك المظاهر عن طريق النّظرة الفاحصة في شعره قبل أوان الانعطافات في حياتهم نحو الزّهد والتّقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

وأننا سنقتصر في تقصينا لموضوعات الزّهد على ما عُرف به المجتمع بصورةً عامةً، والشّعراء بصورة خاصة، من ميلٍ نحو موضوعات تخرج عن دائرة التّقاليد والأعراف السّائدة في المجتمع وفي الدين.

لقد عاش أغلب المجتمع الأندلسيّ في حياةٍ مليئة بالمجون واللّهو والسّمر في مجالس الخمر، سواء أكان ذلك في البيوتات الخاصة، أم ممّا وفرته البيئة لهم من وسائل الجمال والارتياح، كما اسهم الثّراء المبالغ به في إفساد الشباب حتّى غدا هذا الأمر معْلَمة واضحة في الحياة العامة، على ما سيتضح لنا في تفصيل تلك المظاهر على نحو أوسع.

ولعلّ أوّل ما يبدو لنا واضحاً ظاهرة شرب الخمر في عصور الأندلس اجمعها.

الخمر قبل الزّهد أوّلى تمظهرات المجون

لقد اشرأبت نفوس معظم الأندلسيين في حياتهم اليومية نحو تعاطي الخمور، سواء أكان ذلك لدوافع شخصية أم لكونها ظاهرة اجتماعية معتادة، فقد عدّ بعض الباحثين المزاج الحاد الّذي عُرف به بعض أبناء المدن الّتي تعرضت للحروب والحصار والتّهجير سبباً رئيساً ليكون معادلاً موضوعياً لتلك الظّواهر الّتي قيّدت حياته، وأجهضت تطلعاته(ناجية سليمان إبراهيم،٢٠٢٢م:١٧٩) فاتجه نحو إشغال النّفس بما يمتعها هروباً من واقعه، والاستمتاع بملذات الحياة والانغماس فيها.

إنّ شرب الخمر لم يشكل سبّة كبيرة أو ما هو شأن في تركيبة المجتمع، ولعلّ الاختلاط بالأقوام الأخرى، ولا سيما الإسبان منهم ممّن يجوزون شربه وتعاطيه وبيعه وإنتاجه أمرا طبيعياً مفروغٌ منه، فولد هذا استسهالاً في الأمر، فضلاً عن الانتشار الواسع لحانات الخمر وبيوتاتها، بل إنّ بعض الشّعراء بالغ في أهميتها، إذ عدّها شقيقة الرّوح، كقول الشّاعر ابن حمديس الصّقليّي (ينظر: محمد بن صفي الدين الأصبهاني، ١٩٦٤م:١٩٤/٢،وصلاح الدين الصفدي،٢٠٠٠م:٢٥/١٨).

"مُدامةٌ للرّوحِ أُخْتٌ بَرةٌ ينْأى بها سرُورُنا عن التّرح

قد عَلِمتْ مزاجهُ فَشُربُها يَجْرَحُهُ ثُمتَ يأسُو ما جَرَح" (ابن حميدس الصقلي، د.ت:٨٦. ٨٨)

فالخمر كما يبدو اضحى وسيلة للوصول إلى اللّذة المنشودة والمتعة، ويبدو أيضاً أنهم ساروا على نهج من سبقهم من العباسيين الّذين وضعوا قضية تحريم الخمر نصب أعينهم، ولكنّ بالجانب الآخر، أي الدّعوة إلى عدم الانصياع لما ورد في الأدبيات الإسلامية، وبهذا الصّدد نتذكر قول أبي نؤاس (شمس الدين الذهبي،١٩٨٥م: ٢١٨) مخاطباً جمع الشّعراء أو سواهم ممّن ينادون بالانصياع إلى التّحريم قائلاً:

" يا ناظراً في الدين ما الأمرُ لا قــدَرَ صَحَّ ولا جَبر

ما صَحّ عندي من جميع الذي يذكر إلا الموتُ والقبر"(أبو نؤاس،١٩٥٣م:٢١٨)

فشعراء الأندلس على ما عُرف عنهم من تقليدِ كلّ ما هو مشرقيّ، بل والافتخار بهذا التّقليد، نراهم ممّا يدعون إلى شرب الخمر علانيةً من دون وازعٍ ديني يصدهُ عن ذلك، فكانت البيئة المحيطة بهم بما عُرف عنها من جمالٍ طبيعي أخاذ مسرحاً للهوهم، وشرب الخمر بين أكتافها، وهذا ما يبرر لنا ذلك التّمازج الكبير بين شعريّ وصف الطّبيعة والخمرة، إذ

شكل فنُ الخمريات شيوعاً من بين الفنون الشّعريّة الأخرى في الأندلس، غير عابئين بذلك التّحريم الدّينيّ لها، وقد أشار المستشرق "اميليو كومث" إلى أن بعض الأندلسيين عمدوا على شراب أنواع من الخمر لم يعرفْ عنها التّحريم، كالعنب مثلاً، فعُرف صنوفا أخرى كان شربها حلالاً، أو لم ينتهِ الفقهاء في البتّ بأمرها، وكانت عادتهم الاجتماع على الكؤوس في الصباح فسموه "الصبوح" أو في المساء فاطلقوا عليه " الغبوق"، وكانوا يميلون إلى شربها باردة، ويكون اجتماعهم عليها إمّا في قاعات واسعة، أو في رحبة الدّار، أو كما المحنا في مواضع اللّهو الّتي تنتشر في الرّياض المحيطة بهم، ومثلما تحدثوا عن مسميات أوقات شربها، فأنهم تحدثوا أيضاً – علانيةً وجهراً – عن وصفها ولونها وطعمها، وطيب فعلها في النّفوس، وكيفية تقديمها، كما وصفوا أيضاً كؤوسها وأباريقها، والمجالس الّتي تكون مسرحا لها، وما يدور فيها من انتشاء ورقص وغناء، أو مصاحبة النّدماء الّذين غالباً ما يكون من الدّيانة المسيحية.(ينظر: طاهر أحمد مكي،١٩٨٨م:٧٦)

أمّا مجالس الخمر الّتي غالباً ما تقام في أحضان الطّبيعة، فقد تنوعت أوقات أقامتها في الصّباح والمساء، وما ادل على ذلك قول الشّاعر صالح بن يزيد النّفزي (لسان الدّين لسان الدين بن الخطيب،٢٠١٤م:٣/٢٨٣)

"وغانية يغني عن العود صوتها وجــارية تسقي وساقية تجري

بحيث يجرّ النهر ذيل مجرّة يرفّ على حافاتها الزّهر كالزّهر"(لسان الدّين بن الخطيب،٢٠١٤م:٣/٢٧٥)

كما يمكننا أن نشير إلى أن الحانات الّتي غالباً ما كان يديرها المسيحيون واليهود كانت هي الأخرى مسرحاً لشعر الخمر أو تناوله، كما عبر عن ذلك الفقيه محمد بن أحمد اللّخمي الطرسوني(ينظر: جلال الدّين السيوطي، د.ط:١٨، ولسان الدّين لسان الدين بن الخطيب،١٩٦٣م: م:٧٣)

"طرقنا ديور القوم وهنا وتغليسا وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى

وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم وقد قدسوا الروح المقدس تقديسا

فما استيقظوا إلا لصكة بابهم فـــأدهش رهبانا وروع قسيسا

وقام بها البطريق يسعى ملبيا وقد اصمت الناقوس رفقا وتأنيسا

فقلنا له: أمنا فأنا عصــابة أتينــا لتثليث وان شئت تسديسا

وما قصدنا إلا الكئوس وإنما لحنا له في القــول خبثا وتدليسا

ففتحت الأبواب بالرحب منهم وعرس طلاب المدامة تعريسا

فلما رأى زقي أمامي ومزهري دعانــي تأنيسا لحنث وتلبيسا

وقام إلى دن ففض ختامه فكبس أجرام الغياهب تكبيسا" (ينظر: لسان الدين لسان الدين بن الخطيب،٢٠١٤م:٤/٣٤٣، ولسان الدين لسان الدين ابن الخطيب، ١٩٦٣م:٧٩، وايمن يوسف إبراهيم جرار، ٢٠٠٧م:١٢٣)

تأسيسا على ما تقدم، فأننا واجدون أن النّظرة إلى الخمر ومتعاطيه لم تكن سلبية محضة، بل كانت كما بدا لنا نظرة متفاوتة استطاع الشّعراء ممّن كانت الخمرة مادتهم الشّعرية أن ينفذوا من تلك المساحات الّتي تسمح بالمرور من خلالها نحو علانية الشرب والمجاهرة به، دونمّا وازع أخلاقي أو ديني على نحو ما سنرى عند استعراضنا للشعراء مدار البحث.

الشّاعر ابن حمديس الصّقليّ الّذي عرف بدعوته المتكرر إلى الشّراب، وعقد مجالس الخمر، فشكل هذا غرض مهم من أغراضه الشّعريّة، ووسيلة من وسائل القفز على الهموم والأحزان، الّتي كانت تعتريه في حياته اليومية، فضلاً عن

واقعه الّذي شابه كثيراً من المعوقات حتّى أضحت سمة لازمة في حياته، وانعكست في شعره، إذا ما اردنا أن تظهر تجاربه الانفعالية المنعكسة، فتحولت عندئذٍ إلى دعوة إلى الشّراب وحضور مجالس الخمر على نحو واسع.

لا يمكن بأي حال من الأحوال، النّظر إلى اندفاع الشّاعر ابن حمديس الصّقليّ نحو اللّهو والمجون بدعوات صريحة واضحة إلا من خلال حصر هذا الموضوع في زاوية، ربّما تكون تبريراً تكفي الشّاعر مؤونة الرّد على منتقديه، ممّن يرون أن انغماس الشّاعر بالملذات على هذا النّحو يعدّ مثلبة في حياته.(الدكتور إحسان عباس،٢٠١١م:١٩٩)

ولم تكن غايتنا في هذا المبحث أن نبرر سبب إقدام الشّاعر على الخمر، ولكننا نرى أن ثقافة المجتمع كانت مدعاة؛ لأن يسرح الشّاعر في مجالس اللّهو ولا سيما في مدينة صقلية الّتي عاش الشّاعر بين ظهرانيها صبياً ويافعاً، فانغمس ذلك الانغماس، حتّى تسربت إلى أفكار الشّاعر مؤثرات البيئة، واضحت حلقة تحيط به، لا يمكن له الخلاص منها. ولا شكّ أيضا أن ما يتمتع به الشّاعر ابن حمديس من ثقافة واسعة أسهمت هي الأخرى بالانفتاح على الثقافات الواردة الأخرى، فاستطاع هذا الشاعر في مرحلة من مراحل حياته ولا سيما في صباه أن يتسلل وبقوة من تلك الأعراف والتّقاليد والأحكام الدّنية، مع ارتياد مستمر للأديرة والحانات لشرب الخمر، وحضور مجالس اللّهو. ولا ننكر البته تأثره الكبير بشعر أبي نؤاس حتّى اضحى هذا الشّاعر أستاذه في شعره وديوانه.(ينظر: شوقي ضيف،١٩٩٥م:٩/٤٠٠)

وإذا ما اردنا أن نتفق على تلك الرؤى الّتي وقف إزاءها الشّاعر الصّقليّ إلفينا تشابها يكاد أن يكون متطابقا بين شعره وشعر أبي نؤاس (رائد الخمرة) وهذا ما يبرر لنا سعة واطلاع الشّاعر وثقافته القت بظلالها على شعره، وكأننا نقرأ شعراً (لأبي نؤاس الأندلسيّ)، ولا ننسى أيضا عوامل التّقليد والاحتذاء الّتي لازمت الأندلسيين لكلّ ما هو مشرقي، سواء أكان ذلك نابعا من تجارب حقيقة أم تقليداً اعمى فحسب، لكن ما وصل إلينا من شعر الشّاعر ينبئ من أنه عاش هذه الحياة، وتلذذ بها، بل وانغمس فيها حتّى قيل أن ابن حمديس في شعر الخمر قد تجاوز شعراء عصره.(أبو عبد الله عماد الدّين الكاتب الأصبهاني، ١٩٦٤م:٢/١٩٤، و الحسن علي بن بسام الشّنتريني، ٢٠١٢م:٤/ ٣٢، شوقي ضيف، ١٩٩٥م:٩/٤٠٥)

وعوداً على بدء، فأننا واجدون أن شعر الخمر الذي روض الشاعر نفسه على تقبل الهموم والماسي، من خلال الإدمان على الخمر، والّذي يشكل وسيلة – كما يرى – للهروب من الواقع هروبا نحو اغتنام اللّذات، ورسم صور للمسرات على نحو ما قاله وهو في مدينة إشبيلية، إذ كانت مكان اغترابه، فالقرب من ساقية ماء مستديرة حيث الندامى يتقابلون على أطرافها، وجد الشّاعر نفسه في بحبوحة وسرور، مازجا بين ما تلحقه الطبيعة من أثر خلاب، وبين ما ترسله الخمرة من انتشاء وسرور، فقال:

"وساقيَةٍ تَسْقي النّدَامَى بمدّهـا كُؤوساً مِنَ الصَّهباءِ طـاغِيَةَ السُّكرِ

يُعَوَّمُ فيها كُلُّ جـــامٍ كَأَنَّما تَضَمّنَ رُوحُ الشَّمسِ في جَسَدِ البَدرِ

إذا قَصَدتْ مِنَّا نَديماً زجـاجةٌ تَناوَلَهـــــا رِفقاً بِأَنمُلِهِ العَشرِ

فَيَشرَبُ مِنـــها سَكرَةً عِنَبِيَّةً تُنَوِّمُ عَيْنَ الصَّحوِ مِنهُ ومـا يَدري

وَيُرْسِلُهَا في مـــائِها فيُعِيدُهَا إلى رَاحَتي ساقٍ على حُكمِهِ تَجري

جَعَلنا عَلى شُرْبِ العُقَار سَمَاعَنَا لُحـــوناً تُغَنّيها الطُّيورُ بِلا شعرِ

وساقِيَنَا مـــــاءً ينيلُ بلا يدٍ وَمَشروبَنَا ناراً تُضيءُ بِلا جَمــرِ

سَقانا مَسَرّاتٍ فَكَـــانَ جَزاؤهُ عَلَيها لَدَينـــــا أنْ سَقَيناهُ لِلبَحرِ

كَـــأَنَّا على شَطِّ الخَليجِ مَدائِنٌ تُسافِرُ فيمـــــا بَينَنا سُفُنُ الخَمرِ

ومـا العَيشُ إلّا في تَطَرُّفِ لَذَّةٍ وَخَلْعِ عِذَارٍ فيه مُسْتَحْسَنُ الــعذر"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:١٩٣)

ولم يكد يخرج الشّاعر من احتفاءه بالخمر ومجلسها حتّى عاد إلينا واصفاً أنواعها، وشكلها ولونها، وما تتركه من أثر في شاربها، إذ قال:

"وأشقرَ من خيل الدنانِ ركبتُهُ فأصبحَ بي في غايةِ السكر يجْمَحُ

فألجمتُهُ بالمزج حتى وَجَدْتُهُ بما شحّ من حُسنِ الرياضةِ يسمحُ

فيا عجَباً من روض نارٍ مكلَّلٍ بنوّار مـــاءٍ في الزجاجَةِ يَسبحُ

فَحَرّ لَظاها يَلذَعُ الهمّ في الحشا وطــيب شَذاها للعَرانينِ يَنْفَحُ"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:١٠٦)

ويجد شاعرنا في الخمرة تأثيراً للتمرد على كل ما هو مألوف، بل هي مبعث النّعيم والسّرور، واسترجاع ذكريات الصّبا والشّباب، على نحو قوله:

"أيّ نعيمٍ في الصِّبَا والمُقْتَرَحْ وشغلُ كفّيّ بكـــوبٍ وقَدَحْ

فَـــلا تَلُمني إنّني مُغْتَنِمٌ مِنَ السّرورِ في زَمَاني مـا مَنَحْ

فإنّهُ مُسْتَرْجِـــعٌ هِبَاتِهِ وباخلٌ مِن الصِّبا بمـــا سَمَح

وَسَقِّني مـن قهوَةٍ كاساتُها تُسْرِجُ في الأيدي مصابيحَ الصّبح

لو شمَّها صاحٍ عَسيرٌ سُكْرُهُ تحتَ لثامٍ فـــي فدامٍ لَطَفَحْ

ولا تسوّفْني إلـى ترويقها لا يَشْتَوي اللّيثُ إذا اللّيثُ ذَبَـحْ"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٨٥ .٨٦)

ويبلغ مقدار أعجاب ما تتركه الخمرة من أثر فاعل في نفسيته، فاختار لها ألفاظا وعباراتٍ لرسم صورة الخمرة وأوصافها، فيضفي عليها أنسنة الوجود، وتشخيص معانيها، حتّى غدت محاورا له، فيبث فيها لواعجه ويشكو إليها آلامه، فهي الملاذ الّذي لا بدّ منها تهربا ممّا حاق به من معاناة على نحو قوله:

"قسْتُ ما قستْ ثم اقتضى المزجُ لينَها فكم شررٍ في الكأسِ رشّت به الشربا

وذي قتلةٍ بالراحِ أحييتُ سمعه بأجوفَ أحيته مُميتَتُهُ ضَرْبـــــا

فهَبّ نزيفاً والنّسيم مـــــعطرٌ فمـــا خلتُهُ إلّا النّسيم الّذي هبّا

شربنا على إيماضِ برقٍ كـــأنّهُ سنا قبسٍ في فحمةِ الليل قد شبّا

سرى رامحاً دُهم الدياجي كأبْلَقٍ له وثبةٌ في الشرق يأتي به الغرْبا

كـأنّ سياط التبر منهُ تَطايَرتْ لها قِطَعٌ مما يسوق بها السُّحْبا"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٥١)

ألفينا ممّا تقدّم ذلك الغور في ملذات الدّنيا والاتجاه نحو زخرفها، وصولا إلى حافة الانحطاط، كان ذلك في أيامه الأوْلى (الصّبا والشّباب)، بيد أن الانعطافة الكبرى، والميل كل الميل نحو حياة أخروية أزلية كان نصب عينه، فنراه بين الفينة والأخرى يتراجع عمّا كان في حياته الأوّلى نحو زهد في الدّنيا وصل إلى حد التّصوف.

وتوخياً لمنهجية البحث، وعند البحث عن الأسباب الّتي أدت إلى هذا الانزياح من حياة المجون نحو التّقرب إلى الله سبحانه وتعالى زلفى، فأن ما توصلنا إليه يرسم لنا حدود تلك الشخصية المتقلبة بانفعالاتها سلباً أو إيجاباً، فلما امتد به العمر، وقد اخذ الخمول وشكوى الكبر عنواناً لحياته الجديدة، تحول الشّاعر نحو شعر الحكمة والزّهد، والإعراض عن الحياة الدّنيا وغرورها على نحو قوله:

"**قَضَتْ في الصِّبا النَّفسُ أوطارَهَا وأَبلَغَها الشَّيبُ إنذَارَها**"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٧٩)

ويبدو لنا أيضاً أن شعره الّذي ينماز بالحكمة والزّهد والدّعوة إلى الأخلاق الإسلامية، يشكل قسطاً من الشّعر الذّاتي العاطفي الّذي يموج بحركية النّص ليجعل المتلقي يتعاطف مع شعره، ولنا في هذا الموضوع قصائد كثيرة ضمها الدّيوان بين دفتيه، كقوله:

"إنَّ السرائرَ عَوْراتٌ وَإنَّ لهـــا مُهَذّباً آخذاً بالـــحزْمِ يَستُرُها

فاطوِ السرائرَ في الجنبَينِ تحجنها عنِ اللِّسانِ الّذي للسَّمْعِ يَنشرها"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:١٩)

كان موضوع الاتعاظ بالموت الّذي لا مفرّ منه، من الموضوعات الّتي خاض الشّاعر ابن حمديس، وكتب فيها قصائد كثيرة(للمزيد من القصائد ينظر: ابن حميدس الصّقلي، د.ت:١٠٧. ١٠٩.١٩٧. ٢٧٣.٢٧٥) وأن هذه الدّنيا فانية لا محال تعقبها دنيا خالدة، فعلى الإنسان أن لا يتغير بها، وندع الشّاعر يتحدث عن ذلك في قوله:

"وَعِظْتَ بلمّتك الشائبـــه وفقد شبيبتك الذاهبـَهْ

وسبعينَ عاماً ترى شمسَها بعينك طالعةً غاربـــه

فوَيحك هل عَبَرَتْ ساعـــةٌ ونفسُك عن زلّةٍ راغبه

فرغت لصنعك مـــا لا يقيك كأنّك عاملة ناصبـــه

وغَرّتك دنياك إذ فوّضـــت إليك أمانيّها الكاذبـــه

أصاحبةٌ خلتها؟ إنهـــــا بأحداثها بئست الصّاحبه

أما سلبتْ منك بُزْدَ الشباب؟ فهل يُسْتَرَدّ من السالبه"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٤٠.٤١)

يقرَّ في موضوع آخر أن الذنوب قد أثقلت كاهله، ويندم على تأخر عودته إلى الله سبحانه وتعالى، وبأسلوب جميل عقد موازنة بين تلك الأيام والأيام التي تلتهى، فقال:

"يا ذنوبي ثَقّلْتِ والله ظَهْري بانَ عُذْري فكيفَ يُقْبَلُ عــذري
كلَّما ثُبْتُ ساعةً عُدْتُ أُخرى لِضُروبٍ من سوءِ فِعلي وهُجري
ثَقُلتْ خَطْوَتــي وفَوْدي تَفَرّى غَيْهَبُ اللّيلِ فيه عــن نُورِ فجرِ
دبَّ مَوْتُ السّكونِ في حركاتي وخَبَا في رمادِهِ حُمْرُ جمـــري
وأنا حيثُ سرْتُ آكــلُ رزقي غير أنّ الزمانَ يأكل عمـــري
كلَّمـــا مَرَّ مِنهُ وَقتٌ بِربحٍ من حياتي وجدتُ في الرّبحِ خسري
كلَّمـــا مَرَّ مِنهُ وَقتٌ بِربحٍ عِلْمُهُ باختلافِ سرّي وجهـــري
مِلْ بقلبي إلى صَلاحِ فسادي منه واجبرْ برأفةٍ مـــنك كسري
وأَجِرْني ممّــا جَناهُ لِساني وتَناجتْ به وساوسُ فِكري"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٢٦٥)

ويرى الدّكتور إحسان عباس أن التّحول في حياة الشّاعر ابن حمديس الصّقليّ، يعود إلى كونه قد نشأ في عائلة فيها وتر قوي من التّدين، فضلاً عن اشتهار والده بالبر والتّقوى؛ وأن روح المحافظة قد غلب على شعره(الدكتور: إحسان عباس،٢٠١١م:١٢٢) وهذا يفسر لنا أيضاً من جانب آخر عزوفه عن الهجاء، وبرر ذلك هو أيضاً باتجاهه الّذي يجنح نحوه فلسفة التي تقوم على العفة دونما إقحام الشّعر بالهجاء، وهو بذلك يوافق طبائع أهل الأندلس في عزوفهم عن الهجاء في أشعارهم.

إنّ هذه الانعطافة الكبيرة التي غيرت حياة الشّاعر وشعره، ودعته أن يتجه نحو الوعظ والتّذكير في ردع النّفس عن الذّنوب على نحو قوله:

"خَلَتْ منك أَيّام الشَّبيبَةِ فَاعْمُرْهَا وماتَتْ لياليها من العُمْرِ فانْشُرْهَا
وهذا لَعَمْري كــلّهُ غيرُ كائنٍ فأخْرَاكَ وَاصِلهْا ودنياكَ فاهجرها
أرى لك نفساً في هواكَ مقيمةً وقد طالَ ذا منها لكَ الويلُ فاقْصرها
وكـم سيّئاتٍ أُحْصِيَتْ فنسيتَها وأنتَ متــى تقرأ كتابَكَ تذْكرْها
فيا ربِّ إنّي في الخضوع لقائلٌ ذنوبي عُيوبي يوْم ألقاك فاسترها"(ابن حميدس الصّقلي، د.ت:٢٣٧)

وهكذا غدت تصاريف الزّمن الّتي ألمت بالشّاعر إحدى اهم السّمات الشّعرية الّتي لازمت شعره الزّهدي. وتجد الباحثة نفسها في خضم نصوص كثيرة تظهر مدى تذمر الشّاعر وندمه من أيام الخوالي الأولى من حياته، عندما كان عقله وقلبه معلقاً بمجالس الخمر والشّراب والمجون الواضح.

وقد اشرنا على هذا التّحول في حياة الشّاعر إنّما هو نتيجة آلَ إليه الزّمن من تبدل في الواقع وخاصة ما يتعلق بعمر الأنسان (الشّاعر)، وقد رجحت الباحثة أن هذا السّبب كان مدعاة لذلك التّحول، ومثّل معادلة طرفاها مجون وصل حد الانحطاط، وزهد وتقرب إلى الله سبحانه وتعالى وصل مراقي النّفس الشّفافة، وهي تناجي ربّ العالمين للعفو والصّفح عمّا بدر منها في أولى حياته.

إنّ قراءة متأنية تنبئ من أن عوامل بيئية، فضلاً عن تقدم العمر ألجأته إلى التّحول الكبير في مجرى حياته. وندعو إلى تصفح نصوصا كثيرة تظهر لنا حياة الشاعر الأوّلى والأخرى.

أمّا ابن الزّقاق البلنسي (ينظر: أبو عبد الله عماد الدين الكاتب الأصبهاني،١٩٦٤: ٥٦٤/٢، وابن دحيّة الكلبي، ١٩٥٥م:١٠٠، ومحمد بن عبد الملك المراكشي، ٢٠١٢م: ٢٢٢/٣) علي بن عطية بن مطرق اللّخمي، فقد عاش هو الآخر حياتين، اتسمت الأولى بذلك التّمرد على الأعراف والجنوح نحو المجون المبالغ به، فتنوع مجونه بين الانغماس في لذة الخمر، أو بين التنقل بين أحضان النّساء، فقد عُرف عن هذا الشّاعر ميله نحو استمالة العيش الرّغيد، والافتتان بالحياة الدّنيا، حتّى غدا شعره مصداق لحياته، وعدّ من شعراء الأندلس الّذين كتبوا في الأغراض الشّعرية جميعها، وقد تفاخر به أهل الأندلس وصار اسمه مثالاً للشعراء المجيدين، ولا سيما في الوصف والمدح، كما رأى صاحب كتاب المرقصات لابن سعيد.(ابن سعيد المغربي الأندلسي،٢٠٢٠م: ٣٨)

وعُرف عنه أيضاً قدرته الفائقة في التّرف بمعاني الشّعر على ديدن ابن خاله ابن خفاجة الأندلسي(ينظر: محمد بن الحسن الكتاني، ١٩٨١م: ١١، وصلاح الدين الصفدي، ٢٠٠٠م:٦/ ٥٥)، فشعره في الخمريات في أولى حياته، وقد وظفه لتبيان ما كان يلتذ به في مجالس الخمر والأنس في الطبيعة وعبقها السّاحر(صلاح الدين الصفدي، ٢٠٠٠م: ٢١/ ٢١٢)، على نحو قوله:

"رقّ النسيمُ وراق الروضُ بالزَّهَـرِ فنبّهِ الكـــاسَ والإبريقَ بالوتر

ما العيشُ إلا اصطباحُ الراحِ أو شَنِبٌ يُغني عن الراحِ من سَلْسَال ذي أُشُر

قلْ للكواكبِ غُضِّي للكـــرى مُقَلاً فأعْيُنُ الزَّهْرِ أولى مـــنك بالسَّهر

وللصـــــباحِ ألا فانْشُرْ رداءَ سناً هذا الدُّجى قد طَوَتْهُ راحـــةُ السَّحَر

وقـامَ بالقهوةِ الصهباءِ ذو هَيَفٍ يكـــــــاد مِعْطَفُهُ ينقدُّ بالنَّظَر

يطفو عليها إذا مـــا شجَّها دُرَرٌ تخالُها اخْتُلِسَتْ مـــن ثغره الخَصِر

فالكأسُ في كفِّه بالراحِ مُتْرَعَـــةٌ كهالةٍ أَحْدَقَتْ فـي الأُفْق بالقمر"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:١٧٣)

ويبدو أن قصائده التي تتصل بالأحداث والأشخاص، إنّما تصور لنا شاعر قد عاش فقيراً بين العوائل "الاستقرطية" وخاصة قضاة بلنسية، فعلى الرّغم هذه العلاقات والصلات إلا أننا واجدون أن الشّاعر قد أنف العيش على ديدنهم وواقعهم، فكانت الطّبيعة ملجأ لهم، ومسرحا لتقلبات أهواءه، وتنفيسا لرغباته المكبوتة، ولم يجد من متنفس أفضل من مجالسة ندماء الخمر، لتكون ملاذاً للهروب من الواقع الّذي كان مليئاً بالتناقضات، ولعلّنا لا نبتعد إذا قلنا إنّ جنوح الشّعراء نحو هذا المجون – واعني به شرب الخمر والتّفاخر بها علناً – بمثابة وسيلة تبعث على النّشوة والارتياح، فانغمس في ملذاتها، ووصف ما تتركه من أثر في نفوس شاربها، فضلا عن التّغني بلونها على نحو قوله:

" قُمْ فاسْقِنـــي ذَهَبِيَّةً إنَّ الأصـــيلَ مُذَهَّبُ

صفراءَ من زُهْرِ الكوا كبِ للزجاجةِ كــوكب

أوَمَا تَرى ذيل السَّحـا بِ على الحدائقِ يُسْحَبُ

والروضُ يأرجُ والغديـ رُ مع الحمــامِ يُصَخَّبُ

فـإذا ترنَّمَ أوْرَقٌ فيه تدفَّقَ مِـذْنَب"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٩٣)

ويتغنى مرتجلا بالخمر ذاكراً إياها على نحو تذهب العقل بسرعة، ممّا يمنحنا انطباعا أن هذا الارتياح الّذي تولده الخمرة في شاربها نفسه كانت ملازمة للشاعر يتغنى فيها أنى حين على نحو قوله:

" يا مَنْ سَبا ريّاهُ عَرْفُ الصِّبا وذرَّ من أزرارِهِ شارِقُ

ذَرْنِي وعينيكَ أُسائِلُهُمـــا بأيِّ ذنبٍ قُتِلَ الوامـق

تاللهِ مـــا أَمْلِكُ نجوايَ يا مملوكُ والدمعُ بـه ناطق

أنَّى لمثلي فيكَ كَتْمُ الهوى والدمعُ سَكْبٌ والحشا خافق"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٠٣)

أمّا مجالس الخمر فقد كانت هي الأخرى الملاذ الّذي يحتضن آلام الشّاعر ولا سيما عندما تشارك الرّاقصات في إكمال فرحته وسروره، وبذلك فإنّ الشّاعر نراه قد ألزم نفسه في صباه وشبابه بذلك الانقياد الأعمى نحو المجون بكل صنوفه وضروبه على نحو قوله:

"لا مثلَ مجلسنا وقد نُظِمتْ به فـي جيدِ أعناق السُّرور قلائدُ

وافى به القُرَشيُّ وهـو كأنَّهُ قمرٌ وأكـواسُ المُدام فراقِد

ظبيٌ حمـاه الله بالحسنِ الذي بذَّ المحاسِنَ فهو فيـه واحد

أحـوى أغَنُّ إذا ذكرتُ جلالهُ قامتْ عليه من الجمال شواهد

كَمُلَ السرورُ به ولولا شخصُه مـا قادنا نحو المسرَّةِ قائد"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:١٤٣)

وفي المعنى نفسه يصف شاعرنا مجالس الخمر وما يكتنفها من أعمال تثير في نفسه الرّغبة في التّلذذ في الحياة، والاستمتاع بمباهجها ضاربا بذلك الأعراف الدّينية والقوانين الوضعية، بعد أن جعل الخمر قسيما له، ومشاركا في المتعة على نحو قوله:

"وساق يحثُّ الكاسَ وَهْيَ كأنما تلألأ منـــها مثلُ ضوءِ جبينهِ

سقاني بها صِرْفَ الحميَّا عشيَّةً وثنَّى بأُخْرى مـن رحيقِ جفونه

هضيم الحشا ذو وجنةٍ عَنْدَ مِيَّةٍ تريكَ قِطافَ الوردِ فـي غير حينه

فأشْرَبُ منْ يُمناهُ مـا فوقَ خدِّهِ وألثُمُ من خَدَّيْهِ ما في يمينه"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٧٤)

وتأسيسا على ما تقدم فأن شرب الخمر وتعاطيها كان ديدنا سار الشّاعر عليه في حياته، التي مثّلت جانبا كبيرا منها روح التّلذذ بمغريات الحياة ومفاتنها. فالخمرة صبوح له في ريقه، وهي مفتتح يومه، الرّفيق له في ترحاله.

ويبدو أن هذا المذهب في الحياة الذي يقوم على أساس من المجون والخمر والطرب، له فلسفة خاصة عند الشّاعر، تقوم على اغتنام فرص الحياة قبل أوان الموت شعورا منه، باغتنام اللّذات وفرصها في عهد الشباب.

ولما اضطربت لديه موازين الحياة واختلالها، فقد مال الشّاعر نحو حياة أخرى شكلت انعطافه كبيرة، وأرانا مجتهدين في تلك الانعطافة وأسبابها، وبعد البحث والتّقصي في حياة الشّاعر وديوانه تلمسنا سبب ذلك ما طرأ على حياته من معاناة بعد فقد أخيه وزوجته تباعا، فرأى بأم عينه أن هذه الحياة قصيرة الأجل، وأن العمر وان امتد بها سيغدو تحت التّراب، وتلمسنا أيضا أن نظرته إلى الحياة وقيمتها قد تجلت بذلك الشّعور بعدم القدرة على مواكبتها فضاق بها ذرعاً، فاتجه نحو الحكم والوصايا، وما تركته مخالب الحياة من أثر على جسده بين قيعان النّفاق والتّملق السّياسي والتّفاخر بالحسب

والنّسب، فانف عن مدح الملوك والسّلاطين، فشكل هذا الأمر الومضة التي قدحت في زناد شعره، فحولته من شاعر لاهٍ إلى شاعر حكيم واهد، ويبدو هذا واضحا في المقطوعة التي ذكرها:

"واقتنِ المجدَ مقيماً وادعاً بالوَفا أو بالسُّرى غيرَ مقيم

وإذا رابتك أرضٌ أو نبتْ بـــك جاوِزْها بوخدٍ أو رسيم

وإذا مـــا عُدِمَ الوفرُ فَكُنْ من علاً أو من نهىً غيرَ عديم

ما الغنى الأكبرُ إلاَّ أن تُرى قانعاً بالشطءِ مـن دون الجميم

وإذا كنت صـحيحَ الذاتِ لا تَقرعِ السنَّ علـــى مـالٍ سقيم

كنْ جسيمَ المجد والعليا وإن كـــــان ما تملكه غير جسيم

لا يغرنَّك مِـــنْ ذي ثروة نَشَبٌ يَرْفَعُ مـــن قدرِ اللئيم

كل شيء فاسْلُ عنـــه هالكٌ غيرَ وجهِ اللهِ ذو العرش العظيم"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٥٧)

فتحول شاعرنا من حكيم واعظ إلى رجل يقف أمام فلسفة الموت خائفا داعيا من يسمعه إلى اخذ العظة والاعتبار من قدرة الخالق – جلت قدرته – على فناء الأمم بعد طغيان أهلها، فدعا فيما دعا إليه بالتّزود بصالح الأعمال وصولا إلى النّعيم المقيم في الأخرة، فنراه مناجيا مستغفرا ربه على نحو قوله:

"يا عالمَ السِّرِّ منّي اصْفَحْ بفضلكَ عنّي

مَنَّيْتُ نفسي بعفوٍ مولايَ منكَ ومنـي

وكان ظنّي جميلاً فكنْ إذاً عندَ ظني"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٧٤)

وبلغ الأمر فيه أن يوصي أن تكتب هذه الأبيات على قبره، وهي تنفر الناس من الحياة الدنيوية، والعودة إلى الله سبحانه وتعالى عودة خالصة لا مراء فيها ولا نفاق، إذ قال:

"أإخوانَنا والموتُ قد حال دونَنا وللموتِ حكمٌ نافذٌ في الخلائقِ

سبقتكمُ للـــموتِ والعمرُ ظِنَّةٌ وأعلمُ أنَّ الكلَّ لا بدَّ لاحـــقي

بعيشكمُ أو باضطجاعيَ في الثَّرى ألم تَكُ في صَفْوٍ من الودِّ رائق

فمن مرَّ بي فليمضِ بـي مُترَحِّماً ولا يكُ مَنْسِيّاً وفاءُ الأصادق" (ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٠٥)

كنا وقد ألمحنا أن ما لحق الحياة الاجتماعية في إشبيلية أو في المدن الأندلسية الأخرى من انحطاط في القيم، قد شكل معادلة طرفاها مجون يبلغ الحضيض، وزهد يبلغ عنان السّماء، ويبدو أن شاعرنا قد استوعب هذه المعادلة وصورها لنا أجلّ تصوير في شعره واصفا ما كان واضحا في حياة النّاس من نفاق وأمراض اجتماعية أخرى، فأثر الانزياح عنها خلف سواتر العفة والدّين وصولا إلى مرتبة الزّهد فيها نحو قوله:

" فقلت دعي الزمان يفلّ غربي فليس يعيب ذا شطب فلـول
وفيما قد بلوت مـن الليالي عزاء أن يلازمني الخمــول
دوائرها ترقَّع كـــلَّ نذلٍ وتخفضُ من لـــه مجدٌ أثيل
كما حلَّت وهادَ الأرض أسدٌ وحلتْ في بواذخها وعــول
فـــمن وغدٍ يلاطفه أريب ومن فَدْمٍ يصـــــانعه نبيل
وما خير المعيشة لابن إرب إذا افترقت إلى الجهل العقول
وقد نلت التجمّل فــي زمان قبيـــــح عند أهليه الجميل
شراب المعلوات بــه سراب ومنتجع الندى طلـــل محيل
وأعلام المودّة طامســـات فـــلا عيش يَسُرُّ ولا خليل
وأيّ أخي إخاءٍ لا يداجي وأيُّ حلـيفِ عَهْدٍ لا يحول"(ابن زقاق البلنسي،١٩٦٤م:٢٣١)

يفهم ممّا تقدم أن ما قد توقعناه قد حدث من أن للشاعر حياتين تمثلت الأوّلى كما – أوضحنا – حياة لاهية، وأخرى ورعة تتنظر مصيرها المحتوم، بوجلٍ وخوفٍ بعد أن شكل الموت ظاهرة وقف إزاؤها جبابرة القوم وضعافهم حائرين مذهولين في محاولة فك لغزها، وهي أيضا كانت مدعاة لبناء فكرة الزّهد بعد المجون.

وممّن اقبل على الدّنيا قلبا وقالبا، الشّاعر ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ)، فقد أُثر عنه ذلك الميل الكبير نحو الخمر ومجالسها، ومفاتنها، وندمائها، حتّى يُخيل للمرء أننا إزاء شاعر أوقف جُلَّ شعره على الخمر، ولاسيما عندما يصاحب ذلك التّوجه وصفاً للطبيعة، فنأتي مشاركةً له في عشقه لها.

إذا اردنا أن نستجلي الأسباب التي دعت الشّعر نحو هذا الميل، كل الميل نحو صورة من صور المجون، فإننا واجدون أن ما دفعه إلى ذلك، هو السّبب نفسه الّذي دفع أقرانه، ونظرائه من الشّعراء، إذ إن الطبيعة قد ألهمته، وأخذت حيزا كبيرا من عقله وقلبه، فاندفع – كسواه – نحوها وما تجود به من ثمرات، سواء أكانت خمرا أم زهورا أم انهارا خلابة(ينظر: ابن خاقان،١٩٨٩م:٢٣٢، عبد ربي نوال،٢٠١٠م .٢٠١١م:١٩).

وقد اقبل على هذه الدّنيا منذ صباه لاهيا طربا، فعاش في بحبوبة من التّرف المبالغ فيهن حتّى يخيل للقارئ أنّه في جنة رسمها لنا في قصائده، وهذا ليس ببعيد عن الشّاعر الّذي وصف الأندلس بالجنة، حتّى قال:

"إنَّ لِلجَنَّةِ في الأَندَلُسِ مُجتَلى حُسنٍ وَرَيّا نَفَسِ
فَسَنا صُبحَتِها مِن شَنَبٍ وَدُجى ظُلمَتِها مِن لَعَسِ
فَإِذا ما هَبَّتِ الريحُ صَباً صِحتُ وا شَوقي إِلى الأَندَلُسِ"(ابن خفاجة، ١٩٦٠م:١٣٦)

وظهر ميله إلى اللهو واضحا في الأبيات الّتي غطت جانباً كبيراً من ديوانه، فهي رسائل شعرية كتبت على شكل مقطعات، على نحو قوله:

" تَقَلَّبتُ فيهِ بَينَ أَعطــافِ عيشَةٍ كَما اِخضَرَّ يَندى أَبطَحٌ ظَلَّ يُعشِبُ
وَقَد هَزَّ مِن عِطفَي نَديمٍ وَخُوطَةٍ أَنينُ حَمـــــامٍ أَو غُلامٌ يُطَرِّبُ
وَجِزعٌ بِأَنداءِ الغَمــامِ مُفَضَّضٌ وَذَيلٌ عَلَـــــيهِ لِلعَشِيِّ مُذَهَّبُ

وَقَد جالَ مِن كَأسِ السُلافَةِ أَشقَرٌ يُسابِقُهُ مِن جَدوَلِ الماءِ أَشهَبُ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م: ٣٤)

أمّا مجالس الخمر التي كانت الطّبيعة مستقراً لها، فقد جمع شاعرنا بين وصف الطّبيعة، ووصف الخمر بأسلوب ينماز بالرّقة، ويسمو بالتّشخيص لموجودات الطّبيعة، لتشاركه أحزانه وأفراحه، وتكون نديماً له على نحو قوله:

"**سَقِياً لِيَومٍ قَــد أَنَختُ بِسَرحَةٍ رَيّا تُلاعِبُها الشَمــالُ فَتَلعَبُ**

سَكرى يُغَنّيها الحَمــامُ فَتَنثَني طَرَباً وَيَسقيها الغَمامُ فَتَشرَبُ

يَلــــهو فَتُرفَعُ لِلشَبيبَةِ رايَةٌ فيــهِ وَيَطلُعُ لِلبَهارَةِ كَوكَبُ

وَالرَوضُ وَجهٌ أَزهَرٌ وَالظُلُّ فَرعٌ أَسوَدٌ وَالمــاءُ ثَغرٌ أَشنَبُ

في حَيثُ أَطرَبَنا الحَمــامُ عَشِيَّةً فَشَدا يُغَنّينا الحَمــامُ المُطرِبُ

في فِتيَةٍ تَسري فَينصَدِعُ الدُجى عَنها وَتَنزِلُ بِالجَديبِ فَيَخصِبُ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:٣٥)

فمصاحبة الخمر للطبيعة لم تأتِ عرضا في قصيدةٍ أو مقطوعةٍ فحسب، بل كانت تشكل ظاهرة في الديوان، فحملت قصائدهُ ذلك العبق الّذي جمع بين ضوع الخمر والأقحوان والنرجس والجلنار وغيرها. ويكفينا ما قاله عنه ابن خاقان في قلائده، إذ قال: "مالك أعنّة المحاسن، وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها الناظم لعقودها، الرّاقم لبروها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائها وزفافها، تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه من الإجادة الرّشاء، فشعشع القول ورقمه، ومدّ في ميدان الإعجاز طلقه، فجاء نظامه أرق من النّسيم العليل، وأنفق من الرّوض البليل، يكاد يمتزج بالرّوح، وترتاح الله النفس كالغصن المروح، إن شبب فغمزان الجفون الوطف، أو أشارت البنان التي تكاد تعقد من اللطف، وإن وصف سراه، والليل بهيم ما فيه وضوح، وخد الثريا بالندى منضوح، فناهيك من غرض انفرد بمضماره"(ابن خاقان، ١٩٨٩م:٢٣٠)

ويبلغ التّصريح بعشق الخمر ومجالسها مبلغاً كبيراً، وذلك في مقطوعته الّتي تحمل الرّوح القصصية، وهو يتجه قلباً وقالباً نحو مجلس خمر في ليلة باردة ينتظر دفء الخمر من أيدٍ، طالما تعوّد على مجالستها في تلك الحانات الّتي يزهو بها الشّرب؛ بصحبة من يحب من الحسان والجواري والنّدمان من النّساء، على نحو قوله الّذي اثرنا الإتيان به كاملاً، لما يشكله من نسيج مترابط من القص الشّعري:

"**أَلا فَضَلَت ذَيلَهــــا لَيلَةٌ تَجُرُّ الرَبابُ بِهــــا هَيدَبا**

وَقَد بَرقَعَ الثَلجُ وَجهَ الثَرى وَأَلحَفَ غُصنَ النَقا فَاِحتَبى

فَشابَت وَراءَ قِناعِ الظَلامِ نُواصي الغُصونِ وَهامُ الرُبى

فَمَهمــــا تَيَمَّمتُ خَمّارَةً رَكِبتُ إِلـــــى أَشقَرٍ أَشهَبا

وَحَيَّيتُ جانِبَها طـــــارِقاً فَقــالَت تُجيبُ أَلا مَرحَبا

وَقامَت بِأَجيَدَ مِــن كَأسِها لِأَوقَصَ مِــن دَنِّها أَحدَبا

فَجـــــاءَت بِحَمراءَ وَقّادَةٍ تَلَهَّبُ فــي كاسِها كَوكَبا

عَثَرتُ بِذَيلِ الدُجى دونَــــها فَأَضحَكتُ ثَغراً لَها أَشنَبا

وَقد مَسَحَ الصُبحُ كُحلَ الظلامِ وَأَطلَعَ فَودُ الدُجى أَشيَبا"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:٢٦ .٢٧)

وعلى الرّغم من هذا التّوهج وذاك الاندفاع، وتلك الحسان، وما يرافقها من فعل يتأتى من شرب الخمر، فيدع الشّاعر يعيش في بحبوبة وانتعاش ونشوة دائمة، نقول على الرّغم من هذا كله إلا أننا نفاجأُ من أن ابن خفاجة قد ترك تلك الحياة اللاهية الماجنة، مؤثراً حياة الانزواء والابتعاد كليا عن قول الشّعر وما فيه، وقد صرح هو بتلك الانعطافة التي بدلت ليل المجون بالزّهد، فذكر لنا أنه "ولما انصدع ليل الشّباب عن فجره، ورغب المشيب بنا عن هجره، نزلت عنه (أي الشّعر) مركبا، وتبدلت به مذهبا، فأضربت عنه برهة من الزّمان الطّويلة، اضطراب راغب عنه زاهد فيه، حتى كأنّي ما سامرته جليسا، يشافهني أنيسا، ولا سايرته أليفا، يفاوهني لطيفا"(الدكتور: إحسان عباس،٢٠١١م:٢٠٦)

وإذا اردنا أن نستجلي الحقيقة في تحوله نحو حياة الزّهد والتدين، فإننا نقول وبثقة تامة، إن تقدم العمر بالشّاعر الّذي عاش أزيد من ثمانين عاما؛ كان سبباً ومدعاة إلى هذا الانزواء، ثم التّحول نحو حياة أخروية سرمدية باقية. وقد اطلق الباحثون النّقاد على مثل هذا التحول نحو الحياة الزّهديّة بزهد الشّيخوخة "لقد اطلق عليه زهد الشّيخوخة، ويصدر عن الخوف من الموت، وما بعده، فيدعو إلى التّقوى والمبادرة إلى النّدم والإقلاع عن الذّنوب"(السيد أحمد عمارة، ٢٠٠١م :١٤٩) ويبدو ذلك واضحاً في قوله:

"أَلا صُمَّتِ الأَجداثُ عَنّي فَلَم تُجِب وَلَم يُغنِني أَنّي رَفَعتُ لَها صَوتي

فَيا عَجَباً لي كَيفَ آنَسُ بِالمُنى وَغايَةُ ما أَدرَكتُ مِنها إِلى الفَوتِ

وَهَل من سُرورٍ أَو أَمانٍ لِعاقِلٍ وَمَفضى عُبورِ العابِرينَ إِلى المَوتِ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:٢٦. ٢٧)

وقد كتب ابن بسام في ذخيرته أنّ الشّاعر ابن خفاجة كان قد تقلب في حياته ولا سيما بعد أن امتد به العمر، فاتجه نحو النّسك والزّهد، ونعتقد أن اقتباس قول ابن بسام يؤكد تلك الانعطافة الواضحة على نحو قوله: "وكان في شبيبته مخلوع الرّسن في ميدان مجونه، كثير الوسن ما بين صفا الإنهاك وحجونه، لا يبالي بمن التبس، ولا بأي نار اقتبس، إلا أنه قد نسك اليوم نسك ابن أذينة(ابن بسام الشّنتريني، ٢٠١٢م:٦/ ٥٤٢)، وأغضى عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه"(ابن خاقان، ١٩٨٩م:٢٣١، و ابن بسام الشنتريني، ٢٠١٢م:٦/ ٥٤١. ٥٤٢)

ويبدو أن الطّبيعة السّاحرة ومجالسها لم تكد تفارق مخيّلة الشّاعر، فوظّف موجودات الطّبيعة في شعره الزّهديّ، ولا سيما موضوع الفناء والانتهاك ممّا يبعث في طيات قصائده تلك تموج بالحركة، ثمّ الصمت؛ اسماً بذلك دورة حياة الإنسان مصوراً لنا أن لا شيء باقٍ على وضعه، وذلك للاتعاظ بفلسفة الموت، كقوله وهو يصف نواح الحمامة بصوتها الشجي؛ لتشكل فضاءً حزيناً يذكر – على الدّوام – بفاجعة الموت:

"تَراني إِذا أَعوَلتُ حُزناً حَمامَةً ثُرِنُّ وَطَوراً أَيكَةً تَتَرَنَّحُ

غَريقاً بِبَحرِ الدَمعِ وَالهَمُّ وَالدُجى وَلَو كانَ بَحراً واحِداً كُنتُ أَسبَحُ

أُحَمِّلُ أَنفاسَ الشَمـــــالِ تَحِيَّةً يَنوءُ بِها مِن مـاءِ جَفني فَيَرزَحُ

فَلي نَظرَةٌ نَحوَ السَماءِ وَلَوعَــةٌ تَلَدَّدُ بي نَحــوَ الجَنوبِ فَأَجنَحُ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:٦٤)

وكان لحضور الشيب زائراً قد شكل جرس الإنذار للشاعر، فراح يصور لنا حياة الموت وما بعده، ليشكل الشّيب أيضاً معادلاً موضوعياً للحياة اللاهية الأوّلى، ويبدو ذلك واضحاً في قوله:

" **أَرِقتُ عَلى الصِبا لِطُلوعِ نَجمٍ ... أُسَمّيهِ مُسامَحَةً مَشيــبا**
كَفانـــي رُزءَ نَفسٍ أَن تَبَدّى ... وَأَعظَمُ مِنهُ رُزءاً أَن يَغيبا
وَلَولا أَن يَشُقَّ عَلـى الغَواني ... لَلاقَيتُ الفَتاةَ بِهِ خَضيــبا
فَلـــَم أَعدَمْ هُناكَ بِهِ شَفيعاً ... إِلى أَمَلٍ وَلَم أَبرَحْ حَبيــبا
غَريبَةُ شَيبِ فـَودٍ إِن تَراخَت ... حَياتي آلَ أَسوَدُهُ غَريــبا"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:٣٢. ٣٣)

أمّا الاغتراب النّفسي بسبب وحدته وانعزاله عن النّاس، قد شكل هو الآخر باعثاً لقول شعر الزّهد، وقلقاً للشاعر حتّى غدا هذا سبباً آخر يضاف إلى تلك الأسباب الباعثة لشعرهِ، والبيت الّذي يمثل قمة الاغتراب رسم لنا صورة ذلك الانعزال الرّوحي عن النّاس، كقوله:

"**غَيري مَن يَعتَدُّ مِن أُنسِهِ ... مانالَ مِن ساقٍ وَمِن كَأسِه**
وَشَأنُ مِثلي أَن يُرى خالِياً ... بِنَفسِهِ يَبحَثُ عَن نَفسِهِ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:١٣٨)

وأخيرا نعضد ما ابتدأنا به القول من أن زهد هذا الرّجل لم يكن زهد تدين خالص، بل جاء بسبب محاصرة أخريات العمر له، والشّعور بدنو الأجل، أو بعبارة أخرى قاب قوسين أو ادنى من الأجل المحتوم، ولذلك كانت نفسه تهشُ إلى تلك الأيام اللاهية، بيد أن الحياء من الكبر كان طوقاً خنقَ تطلعاته، ولعلّ أبلغ صورة ذكرها الشّاعر عن ذلك التّردد الّذي يعتلج في دواخله قوله:

"**ياحَبَّذا نـــادي النِدامِ وَمُجتَلى ... سَرَّ السُرورُ بِهِ وَمسْلى الأَنفُسِ**
وَلَئِن كَفَفتُ عَنِ المُدامِ فَإِنَّ لي ... نَفَساً تَهَشُّ بِصَدرِ ذاكَ المَجلِسِ
لَولا الحَياءُ مِنَ المَشيبِ لَقَبَّلَتْ ... ثَغرَ الحَبابِ بِهِ وَعَينَ النَرجِسِ"(ابن خفاجة،١٩٦٠م:١٣٨)

عبّرت هذه الأبيات المتقدّمة عن حالةٍ من التّناقضِ ما بين حالة الانحطاط في السّلوك من جهة، وبين حالة ألجأتها الظروف أن تدع كل ما تقدّم جانباً، وتتجه نحو الدّين القويم بتفريعاته وأصوله، ولا نضع انفسنا في موضوع من بإحكام الشّاعر على نصوصه، وما اطلقناه من أحكام حول حياته الأوّلى والثانية ممّا بدا لنا من نصوص والله اعلم بالسرائر.

ولو اتجهنا نحو الشّاعر لسان الدين لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)(ينظر: خير الدين الزركلي، ٢٠٠٢م:٦/٢٣٥) الّذي حمل على كتفيه السّيف والقلم، وكان من المقربين لذوي السّلطة والجاه، وزيراً في بلاطهم لم يرعوِ من أن بجاهر بشربه للخمر في مجالسٍ مليئةٍ بالفجور؛ كالرّقص المبالغ به من قبل القيان والغلمان الّذين ما انفكوا يدورون حول النّدماء في تلك المجالس الّتي غالبا ما تكون الطّبيعة حاضنة لها مع الرّقص على إيقاع الآلات حتّى يتخيل للناظر أنهم في احتفالات كبيرة، فيقول:

"**أدِرْها بينَ مِزْمـــارٍ وعُودِ ... ودونَكَ فاغْتَنِمْ زَمـَنَ السّعودِ**
وجُنْحُ اللّيلِ مَطْويٌّ النّواحي ... وضوْءُ الفَـجْرِ منْشورُ البُنودِ
وإنْ قامَ الغَمامُ بِهـــا خَطيباً ... تَرى الإبْريقَ يُسْرِعُ في السّجودِ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٢٨٢)

يلحظ من الأبيات المتقدّمة أن الشّاعر لسان الدّين بن الخطيب الّذي يعدّ معلمةً من معالم الأندلس؛ فكراً وأدباً وورعاً وجهاداً، فنراه في هذه الأبيات قد تجاوز الأعراف والقيم، واقترب في نواحٍ منها نحو المجون بأسلوب يستفز مشاعر الملتزمين في الأعراف الدّينية، وله أيضاً

"فناوَلَهـــا مَمْزوجَةً برُضابِهِ ولوْ أنّني أنْصـفْتُ قُلْتُ بثُهْدِهِ

فلمّـــا بدَتْ للرّاحِ فيهِ ارْتياحَةٌ ومـــالَتْ شَمالٌ للشَّمولِ بقَدّهِ

توسّدَ أضـغاثَ الرَّياحينِ وانْثَنى يغِطُّ غَطيطَ الطِّفْلِ منْ فوْقِ مَهْدِهِ

فبايَعْتُ سُلْطانَ العَفافِ ولـمْ أُجِزْ علـــى فِكْرَتي إلا الوَفاءَ بعَهْدِهِ

أبا الشّرف الأرْضَى تلطَّفْ بأنْفُس غَزاها غَرامٌ أصْبَحَتْ نهْبَ جُنْدِهِ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٢٨٧)

وقد أفرغ شبابه في هذه الدّنيا طمعا بغرورها ومتاعها، وهنا يذكر لنا مجلسهُ في مدينة سلا، حيث المكان الجميل، والرّوابي الخضراء، فقال:

"يا نَسيمَ الرّيحِ إنْ جِئْتَ الحِمَى بعدَمـــا طبّقَ غيْمٌ وارتفَعْ

وتلوّمْتَ بأكْنافِ سَـــــلا ترْفَعُ الدّوْحَ قَليلاً وتضـــعْ

قُلْ لَوادي الغَبْطِ هلْ منْ عوْدَةٍ يصِلُ الأنْسُ لدَيْها مـــا قطَعْ

أوْ على مرْجِ حَمـــامٍ خطْرَةٌ ما سرَتْ في خاطِري إلا انْجَمَعْ

أوْ بأَسْمِيرَ لَنا مـــنْ سمَرٍ أو علَى ناظورِها مـــنْ مُجتمَعْ

وسَقَى شَلّةَ عـــهْدٌ مُغْدِق هَمى في الرّبْعِ منْـــها وهَمَعْ

ورِباطَ الفَتْحِ يـــا حَيَّ الحَيا ما بَنى المَنْصور فيـــهِ واخْتَرَعْ

ورِياضُ الشّيْخ كمْ مرْأى لَنا فيـــهِ يُزْري بالنُّهَى أو مُسْتَمَعْ

دبّجَ الغيثُ بـهِ خُضْرَ الرُّبى كيْفَما شـــاء ووشّى ووشَعْ

فـــإذا جاءَتْ تحيّاتُ الصَّبا سجَدَ الدّوْحُ خُشوعـــاً وركَعْ

سئِمَتْ أغْصانُه دَيْنَ الصَّبـا فهْـــيَ تقْضي دُفَعاً بعْدَ دُفَعْ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٦٥٩)

استعرضنا فيما سبق ما كان سائداً في شعره من نزوح نحو الخمر بصورة لافتة، كادت أن تضعه في دائرة المجون، بيد أننا واجدون من جانب آخر أن هذا الرّجل سرعان ما عاد إلى ربه جلّ وعلا شأنه متجاوزاً تلك المرحلة العمرية، وربّما كانت هذه العودة تشكل انزياحاً نحو حياة روحية، ونظنّ أنها كانت الطّرف الثاني في المعادلة الموضوعية للصراع الّذي يختلج في داخله بعد أن عانى من مرارة الغربة والتّشرد، وما رافقها من توالي سقوط المدن الواحدة تلو الأخرى حتّى غدت الأندلس بين فكي النّصارى، ومن هنا شكل هذا الموضوع الانعطافة الكبرى في حياته، وجعله يفلسف شعره نحو جنوح صوفي واضح.

ونحن لا نتفق مع من رأى أن الشّاعر لسان الدين بن الخطيب كان في مرحلة مجونه، يساير أقرأنه ويظهر تصنعه في ذلك على نحو قول محمد رستم الهادي: " لم يكن للسان الدين شعر له بالمعنى الذي يفهم من الكلمة، بل يبدو أنه

افتعل هذا الشّعر لمجاراة أقرانه، وإظهار تطلعه في شتى الفنون الشّعرية، نمضي في عدة قصائد يتحدث ويصف مجالس اللّهو دون أن يكون ثمة صلة بينهما وبين النّمط الّذي سار عليه في حياته فانغماسه في حياة التّرف والسّلطان لا تقتضي بالضّرورة الخوض في مجالس اللّهو على نحو ما وصف في قصائده"(ينظر: محمد رستم بن عبد الهادي، ٢٠١٠م:٢، والدكتور: محمد مرتاض،د.ت:١٠٦) ؛ لأنّ الإلحاح يذكر مجالس الخمر ومدى الانتشاء الذي لمسناه في تلك القصائد يظهر عكس ما رأى الباحث.

ويبدو أن الثقافة الدّينية الّتي عاش بين ظهرانيها جعلته يرجع بين الفينة والأخرى إلى تلك الجذور الإسلامية، على رأسها القران الكريم هي الّتي كانت الوخزة الّتي غيرت مجراه، فضلا عمّا تقدم من سبب فألفينا شعره يموج باقتباسات كثيرة من آيات القران الكريم، مع عودة أيضا إلى الحديث النّبوي الشّريف فشكل هو الآخر رافداً من روافده الدّينية.

ولسنا بصدد الإتيان بنماذج من ذلك فهي مبثوثة في ديوانه بكثرة لافتة. وهكذا فقد شكّل الوضع السّياسي وما رافقه من سقوط المدن بفقدان مراتع الصّبا واللّهو والشّعور بالانهيار الجسدي والرّوحي، فضلا عما كان يعرف عنه من العيش في ثقافة دينية، شكلّ هذان العنصران تحولاً كبيراً نحو حياة الزّهد والتّصوف على نحو ما ذكره في ديوانه، فالزّهد من الأغراض التي قد طفحت في مواضع كثيرة من ديوانه، واسهب في وصف الحياة الاخروية ونعيمها مقابل الحياة المادية الزّائلة الّتي لمس فقدان بريقها عندما شهد بأم عينه سقوط المدن أمامه، وهو السّياسي الوزير القريب من سلطة القرار، فما وقفنا إزاءه من شعر زهديّ قوله:

" ألا أُذُنٌ تُصْغـــي إليّ سَميعَةٌ أُحَدِّثُها بالصِّدْقِ مـا صَنَعَ المَوْتُ

مَدَدْتُ لكُمْ صَوْتي بأوّاهُ حَسْرَة علَى ما بَدا منْكُمْ فلَمْ يُسْمَعِ الصّوتُ

هوَ القَدَرُ الآتِي على كُلِّ أمّةٍ فتُوبُوا سِراعاً قبْلَ أن يَقَع الفَوْتُ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:١٨٦)

فالنّص يزخر بالرّموز والدلالات الموحية بالنفحات الزّهدية كما هو واضح. وقوله أيضاً:

"إذا لمْ أُشاهِدْ مـــنكَ قَبْلَ منيَّتي نِهايَةَ آمالِي وغـــايَةَ غاياتِي

فحُسْنُ عَزائي حِيلَ بَيْني وبيْنَهُ وقُرَّةُ عَيْني لـــمْ تُجَلَّ بِمِرآتي

شُهودُكَ أمْنٌ منْ عِداةِ خَواطِري وقُرْبُكَ حِرْزٌ مـــنْ توَقُّعِ آفاتِ

فإنْ لمْ يكُنْ وَصْلٌ فهَبْها إشارَةً فَيا حُسْنَ شاراتِي بِها منْ إشاراتِ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:١٧٨)

ولعلّ ابلغ ما يمكن أن يصف ظاهرة الزّهد عند شاعرنا تلك الأبيات الّتي ذكر فيها النّاس في اليوم الّذي لا رجعة فيه لينأوا عن الاعتزاز بالحياة الدّنيا وزخرفها، نحو قوله:

"خُذْ منْ حَياتِكَ للمَماتِ الآتي وبَدارِ مـــا دامَ الزّمانُ مُواتِي

لا تَغْتَرِرْ فهُوَ السّرابُ بقِيعَةٍ قدْ خودِعَ الماضِي بهِ والآتي

يـــا مَنْ يُؤمِّلُ واعِظاً ومُذَكِّراً يوْماً لِيوقِظَهُ مـــنَ الغَفَلاتِ

هَلاّ اعْتَبَرْتَ وَيا لَها منْ عَبْرة بمَدافِنِ الآبـــاء والأمّهاتِ

قِفْ بالبَقيعِ ونادِ في عَرَصاتِه فلَكَمْ بِها مـــنْ جِيرَةٍ وَلِداتِ

دَرَجوا ولَسْتُ بخالِدٍ منْ بَعْدِهِمْ مُتَميِّزٍ عنْهُمْ بـوَصْفِ حَياةِ

واللهِ ما اسْتَهْلَلْتَ حَيّاً صــارِخاً إلا وأنتَ تُعَدّ فــي الأمْواتِ

لا فَوْتَ عنْ دَرْكِ الحِمامِ لِهارِبٍ والنّاسُ صَرْعَى مَعْرَكِ الآفاتِ

كَيْفَ الحيـــاةُ لِدارجٍ متَكَلِّفٍ سِنَةَ الكَـرى بمَدارِجِ الحيّاتِ

أسَفاً عَلَيْنا مَعْشَرَ الأمــوْاتِ لا تنْفَكُّ عنْ شُغْلٍ بِهاكَ وَهـاتِ

ويَغُرُّنا لَمْــعُ السّرابِ فنَغْتَدي في غَفْلَةٍ عنْ هــادِمِ اللّذّاتِ

واللهِ ما نَصَحَ امْرَأً مَــنْ غَشّهُ والحَقُّ ليسَ بخافِتِ المِشْكاةِ" (لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:١٨٧)

فدعوة إلى ترك المباح المقدور عليه لوجه الله سبحانه وتعالى كانت هي الطّاغية على جو النّص، فشكلت حينئذٍ الدّعوة إلى التّقشف في الحياة ونبذ مفاتنها، وبذلك شكل لنا هذا تغيراً في المسار الّذي ألفيناه في حياته الأوّلى.

ويرى أيضاً أن التّفكير بالموت وما بعده يشكل مساقاً من مساق الزّهد الحقيقي، ليلفت النّظر مرة آخر نحو هذه الحتمية الّتي تمتد من نقطة الولادة حتّى الموت فيقول:

"**هو الْبَيْنُ حَتْماً لاَ لَعَلَّ وَلاَ عَسَى وَمَاذَا عَسَى يُغْنِي الْوَلِيُّ وَمَا عَسَى**" (لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٧٢٠)

وقوله أيضا في حتمية الموت الّذي لا مفر منه مهما بلغ استعدادك للوقاية منه، على نحو قوله:

"**نعِدُّ الرّمــاحَ المشْرَفيّة والقَنى ويَطْرُقُ أمْرُ اللهِ من حيث لا نَدْري**

هوَ الدّهْرُ يجْري في البريّةِ حُكْمُهُ فعِزُّ الغِنى سِيّانِ أو ذِلّــةُ الفَقْرِ

رَمَي تُبَّعاً بالحَتْفِ قصْداً فلـمْ يكُنْ لأتْباعِهِ في ذلكَ الخَطْبِ منْ نصْرِ

وأرْدَى أنُو شِرْوانُ كِسْرى بصَرْفِهِ كَسيراً ولم يتْرُكْ لقَيْصَرَ من قصْرِ"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٣٨١)

ونلحظ ممّا تقدّم أن محالة لسان الدين بن الخطيب إظهار ضعف الإنسان أمام الموت، إنّما هي محاولة مباشرة للتخلي عن مباهج الدّنيا وزخرفها، والتّفكير ملياً بحياة ما بعد الموت، وهذه الدعوة وما سواها لم تكن حاضرة في أيامه الأوّلى وفي مقتبل شبابه عندما كان غارقا في بحبوحة العيش، ومجالس الخمر كما أوضحنا.

وقد دبج أكثر أشعاره الزّهدية في قصائد المديح النّبوي، ويبدو لي أنها محاولة من الشّاعر لفت أنظار المتلقي المتعطش إلى سماع شعر المديح النّبوي أن يجد بين طياتها دعوة إلى الزّهد والأيمان، بعد أن سادت نزعة دينية واضحة تزعمها في عصر الشّاعر أيضاً كلا من الشّعراء ابن الجياب، وابن زمرك وابن الجنان وسواهم ممّن دفعتهم اشتداد الخطوب والأزمات إلى التعلق بأسباب الدّين.(ينظر: مقدمة لسان الدين بن الخطيب، ١٩٧٢م: ١٢٣)

وكانت تلك القصائد التي ضمها ديوانه (الصّيب والجهام، والماضي والكهام) تشكل ظاهرة مزج فيها شوقه إلى النّبي الأكرم مُحمّد – صلى الله عليه واله وسلم– مع الدّعوة إلى نبذ الحياة الدّنيا، والتّفرغ إلى الله جلّت قدرته، ونرى أيضا أن شعر المديح يشكل حلقة للحصول إلى كنة دعوته الزّهدية على نحو قوله:

"**أجارَ بكَ اللهُ العِبادَ مــنَ الرّدى وبوّأهُمْ ظِلاً منَ الأمْنِ مُمْتَدّا**

حَمى دينُكَ الدّنْيا وأقْطَعَكَ الرّضا وتوّجَكَ العُلْيا وألْبَسَكَ الحمْدا

وطهّرَ منْكَ القلْبَ لمّـا اسْتخصّهُ فجَلّلَهُ نــوراً وأوْسَعَهُ رُشْدا

تقدّمْتَ مُخْتاراً تأخّرْتَ مَبْعثاً فقَدْ شمَلَتْ علياؤُكَ القَبْلَ والبَعْدا"(لسان الدين بن الخطيب السلماني، ١٩٨٩م:٢٩٥)

ونلحظ ممّا تقدّم أن ديدن الشّاعر في انعطافه، لم يكن خبط عشواء أو محض صدفة، بل جاء بعد أناة وطول تفكر فيما آلت إليه الأمور، بعد التاثت تلك المدن تحت سنابل خيل النّصارى، فتهاوت واضحت يبابا تصارع الزّمن لوحدها. فوقف الشّاعر وقفت المتأمل حزينا حسيراً على ما وصلت إليه حالة التّداعي والانكسار في خضم ترفٍ مالغٍ فيه من قبل السّاسة وأولي الأمر، ممّن كانت الدّنيا غايتهم.

ونرى أيضاً أن الشّاعر لسان الدين ابن الخطيب، لم تكن دعوته إلى التّقرب إلى الله سبحانه وتعالى تقربا صادقا، إلا وقد حمل الوطن على يديه، فأتت الفتنة العمياء على روحه شهيداً، وكنا ومنذ أن وطأتا قلامنا ديوان الشّاعر ألفينا توجها حقيقياً نحو الدّفاع عن هذا البلد الّذي كان موطن صباه، فاحصينا شعراً كثيرا يموج يتماسك العاطفة الصّادقة، وإذا ما شاب حياته الأولى من لهو ودعوة إلى الخمر والمجون؛ فأنها مبررة هي الأخرى بذلك التنفيس عن حياة ملؤها مكائد سواء أكانت في القصر أم في السّياسة.

والأمر نفسه يحسب على الشّعراء المتقدم ذكرهم، فأغلبهم الأعم كان قد نعطف في مسيرة حياته لأسباب بين طيات الأبيات، فلم نكد أن نصب إلى كنة الحقيقة سوى ما رسمته لنا أبياتهم.

الخاتمة

وإذ نصلُ إلى نهاية البحث وخاتمته، وجدنا أنفسنا إزاء نتاج رشحت بين طياته، ويمكن أجمالها بالاتي

- افضى البحث أن الحياة الاجتماعية اللاهية في الأندلس، كانت مدعاة لانحراف بوصلة الشّعراء نحو المجون.
- كان للاختلاط مع الأقوام المختلفة في مشاربها سبباً هو الآخر لتلك الانعطافة.
- بيّن البحث أن تحول الشّعراء نحو حياة أخرى غير الّتي عهدها إنّما يتأتى بعد أن يواجه أعباء أو هزات غيّرت مجرى حياته،
- إنّ الظّاهرة الدّينية الّتي عرفها الأندلسيون في أخريات عصورهم لم تكن تشكل عبئاً على الشّعراء، بل تركت الباب مفتوحا على مصراعيه في اختيار شكل الحياة وتوجهاتها،

المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة/ أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن سعيد ابن أحمد السّلمانيّ الشّهير بلسان الدّين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)/ شرح وضبط: الأستاذ الدّكتور يوسف عليّ طويل /منشورات دار الكتب العلميّة – بيروت – ط٢ ٢٠١٤م.
- الأعلام /المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ) /الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر / ٢٠٠٢ م.
- البعد الديني في شعر لسان الدين بن الخطيب/ الدكتور محمد مرتاض/ جامعة تلمسان/ الفضاء المغاربي– المجلد الثاني: العدد الرابع.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة /المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) /المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم /الناشر: المكتبة العصرية – لبنان / صيدا.
- تأريخ الأدب الأندلسيّ عصر الطّوائف والمرابطين/ تأليف الدّكتور إحسان عباس/ دار الشّروق للنّشر والتّوزيع – ط١ ٢٠١١م.
- تاريخ الأدب العربي/ شوقي ضيف/النّاشر: دار المعارف – مصر – ط١ ١٩٩٥م.
- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس /المؤلف: أبو عبد الله محمد بن الحسن الكتاني الطبيب (المتوفى: نحو ٤٢٠هـ) /المحقق: إحسان عباس /الطبعة: ٢، ١٩٨١ م /الناشر: دار الشروق /بيروت – القاهرة /الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة.
- الحركة الشّعرية في الأندلس عصر بني الأحمر/ ايمن يوسف إبراهيم جرار/ كلية الدراسات العليا/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس– فلسطين ٢٠٠٧م.
- خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء المغرب والأندلس / مُحمَّد بن مُحمَّد صفي الدين بن نفيس الدّين حامد بن ألله، أبو عبد الله عماد الدّين الكاتب الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ)/ تحقيق: عمر الدّسوقيّ وعليّ عبد العظيم / دار النّهضة – مصر دن ط ١٩٦٤م .
- ديوان ابن حمديس (٤٤٧–٥٢٧) / صحّحه وقدم له الدّكتور إحسان عباس/ دار صادر بيروت / دن ط ت.
- ديوان ابن خفاجة / تحقيق: السّيد مصطفى غازي / منشئة المعارف الإسكندرية دن ط ١٩٦٠م.
- ديوان ابن الزّقاق البلنسيّ/ تحقيق عفيفة محمود ديراني/ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م.
- ديوان أبي نؤاس الحسن بن هاني/ حققه وضبطه وشرحه احمد عبد المجيد/ مطبعة القاهرة – مصر ١٩٥٣م.
- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام/ لابي عبد الله محمد لسان الدين الخطيب/ المؤلف محمد الشريف قاهر /الناشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٢م.
- ديوان لسان الدّين بن الخطيب السلماني/ صنعه وحققه وقدم له الدكتور محمد مفتاح/ دار الثقافة للنشر والتوزيع/ الدار البيضاء/ ط١/ ١٩٨٩م.
- الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة / تأليف الحسن عليّ بن بسام الشّنتريني (ت٥٤٢هـ) تحقيق: سالم مصطفى البدري / منشورات مُحمَّد علي بيضون/ دار الكتب العلميّة – بيروت ط٢ ٢٠١٢م .
- النزعة الصوفية في شعر لسان الدين بن الخطيب / محمد رستم بن عبد الهادي /حلب/ منتديات حلم الباحث/٢٠١٠م.
- الذّيل والتّكملة لكتابيّ الموصول والصّلة/ أبو عبد الله مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبد الملك الأنصاريّ الأوسيّ المراكشيّ (ت ٧٠٣ هـ) حققه وعلق عليه: الدّكتور إحسان عباس، والدّكتور مُحمَّد بن شريفة، الدّكتور بشار عواد معروف/ النّاشر: دار الغرب الإسلاميّ – تونس– ط١ ٢٠١٢م.
- سير أعلام النبلاء / شمس الدّين أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذّهبيّ (ت ٧٤٨هـ)/ تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشّيخ شعيب الأرناؤوط/ النّاشر: مؤسسة الرّسالة – ط٣ ١٩٨٥م.
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ملامحه العامة و موضوعاته الرئيسية و قيمته التوثيقية هنري بيريس ؛ ترجمة الطاهر أحمد مكي/ لنشر: دار المعارف؛ القاهرة؛ ١٩٨٨– ١٩٨٨م. طبعة الأولى.
- شعر بني أمية في الأندلس حتّى نهاية القرن الخامس الهجريّ/ السيد أحمد عمارة/ الناشر مكتبة المتنبي/ ٢٠٠١م.

- شعر الخمريات في ديوان المعتمد بن عبَّاد الأندلسي "دراسة تحليلية وصفية": بحث منشور/ ناجية سليمان إبراهيم سليمان/ جامعة بنغازي– ليبيا/ مجلة آداب الحديدة/ العدد الخامس عشر/ مجلد ٢٠٢٢م.
- الصّورة الفنية في شعر ابن خفاجة الأندلسيّ (مقاربة أسلوبية)/ عبد ربي نوال/كلية الآداب واللغات والفنون/ جامعة وهران، الجزائر/٢٠١٠م – ٢٠١١م.
- قلائد العقيان/ أبو مُحمَّد الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج (ت ٥٢٨هـ)/ تحقيق : حسين خريوش / مكتبة المنار – الزّرقاء – الأردن – دن ط ١٩٨٩م.
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة /المؤلف: لسان الدين بن الخطيب، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ) /المحقق: إحسان عباس/ الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان /الطبعة: الأولى، ١٩٦٣م.
- المرقصات والمطربات /المؤلف: أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)/ تحقيق: الدكتور محمد حسين المهداوي، والدكتور عدنان محمد ال طعمة/ دار الفرات للثقافة والأعلام – العراق/ بالاشتراك مع دار سما للطباعة والنشر والتوزيع/ ٢٠٢٠م.
- المطرب من أشعار أهل المغرب/ أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسيّ الشّهير بابن دحيّة الكلبيّ (ت ٦٣٣هـ)/ تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياريّ والدّكتور حامد عبد المجيد والدّكتور أحمد أحمد بدويّ/ راجعه: الدّكتور طه حسين/ دار العلم للجميع للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان– دن ط ١٩٥٥م.
- الوافي بالوفيات /المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) /المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى /الناشر: دار إحياء التراث – بيروت /عام النشر:١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م